

# الوطن والمواطنة

## تحليل ظاهرياتي

د. حسن حنفي (\*)

### ١ - مقاربات أولية

الفلسفة والوطن موضوع للفلسفة العملية طبقا لقسمة القدماء الفلسفة إلى نظرية: منطوق وطبيعيات وإلهيات، وعملية: أخلاق وسياسة واقتصاد (تدبير منزلي). وهى نفس القضية التى عرفها بعض الفلاسفة المعاصرين فى الغرب باسم «الولاء» أو «الانتماء»<sup>(١)</sup>. وهى قضية ملحة فى الوجدان العربى المعاصر نظرا لما هو حادث حاليا من تفتيت للأوطان فى كيانات عرقية وطائفية فى العراق والسودان والصومال، ومخاطر ذلك على لبنان وسوريا والخليج ومصر والمغرب العربى كله.

«الوطن» هو هذه الرابطة الوجدانية المشتركة التى تجمع بين أناس يعيشون فى مكان واحد وزمان واحد، أى عاملا الجغرافيا والتاريخ. و«المواطنة» هى هذه الصفة لأن يكون الفرد مواطنا أى ينتمى إلى وطن ويدين له بالولاء. أما «المواطنة» فهى ماهية المواطنة، صفة الصفة، اشتقاق عربى سليم ولكن الأذن لم تتعود عليه نظرا لبعده الفكر العربى عن تجريد التجريد، ونظر النظر الذى قد يبعد عن الواقع العيانى المباشر أى الوطن. والمواطنة

(\*) أستاذ الفلسفة الإسلامية، غير متفرغ، كلية الآداب، جامعة القاهرة. مصر.

(١) مثل جوزايا رويس: فلسفة الولاء. J. Royce: Philosophy of Loyalty, Macmillan, 1930. ترجمة:

أحمد محمود الأنصارى، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٠.

ليست مشروعاً أى إمكانية للتحقق بل هو واقع عياني مباشر، بدهاء وجدانية بتعبير برجسون، معطى أولى بتعبير هوسرل. وهى سابقة أيضاً على الدولة. فالدولة هيكل سياسى ثابت ينظم علاقات المواطنين فى سلطات ثلاث: تشريعية، وتنفيذية، وقضائية. وتسبق أيضاً النظام السياسى أى توجه الدولة واختيارها الأيديولوجى. وهى سابقة أيضاً على المجتمع، وعلى التشكل الاجتماعى للقوم فى قبيلة أو عشيرة أو عرق أو طائفة أو مذهب. والمجتمع لا يكون قديماً أو جديداً بل تتغير أشكاله بتغير الزمان. لا ينشأ من عدم، ولا ينتقل فى فراغ. وليس مجرد أمنية تعبر عن الضيق من القديم أو إنشاء تعودت عليه لغة الهم العربى المعاصر. الوطن هو الموضوع، والمواطنة هى علاقة الذات بالموضوع. وبتعبير الظاهريات الوطن هو «النويم» أى الموضوع الحى بعد وضع الموضوع التاريخى بين قوسين. والمواطنة هى «النوييز» أى عقل الموضوع والقدرة على إدراكه بالحدس بقلب النظرة من الخارج إلى الداخل<sup>(١)</sup>. الوطن هو المكان والموقع والموقف. والمواطنة هى الانتماء والولاء الذى قد يصل إلى حالة العشق والفناء والشهادة.

الوطن هو القاسم المشترك الأول بين الناس، التجربة الجماعية الأولى<sup>(٢)</sup>. وليس الدين الذى هو رهبة شخصية أو كما يقول كيركجارد «خشية وارتعاش»<sup>(٣)</sup>. المواطنة ثقة بالنفس وانتساب لجماعة وولاء لأرض فى حين أن الدين خوف من الغيب، وإيمان بالمجهول، وتجاوز للأرض، وانسلاخ عن الجماعة. فالدولة الدينية تناقض، الدولة نظام موضوعى، والدين تجربة ذاتية. أما الدولة الوطنية فواقع أى الشكل السياسى لمجتمع فى مكان وعصر. الوطن واحد يجمع بين المواطنين. والدين متعدد فى أصله وفرعه بين المذاهب والطوائف والفرق وإن كانت وظيفة الدين السعادة والاطمئنان. ليس الوطن هو الأيديولوجيا، رأسالية أو اشتراكية. فرأس المال لا وطن له. والأمية مثل الخلافة تتجاوز حدود الأوطان. ليس الوطن هو الطبقة. فالإنسان يتسبب إلى الجماعة قبل

(١) نويم Noème، نوييز Noèse.

(٢) وهو الذى يدل عليه المقطع الألمانى - فمثلاً Urerfahrung.

(3) Kierkegaard: Crainte et Tremblément, trad P.H. Tisseau, Aubier, Paris.

الطبقة. الجماعة وجود، والطبقة اختيار. الجماعة ضرورة، والطبقة حرية. ليس الوطن هو العرق أو اللون. فالإنسان ليس بدنه بل روحه. وليس لون بشرته بل موقفه من الحياة. وتتجاوز الفاشية والنازية والصهيونية حدود الأوطان لتكوين إمبراطوريات تجمع الأعراق والأجناس، وتقضى على استقلال الأوطان. ليس الوطن هو الدولة. الدولة بنية سياسية لتنظيم اجتماعي لمجموعة من الناس في مكان وزمان معينين. هناك دول عربية متعددة ووطن عربي واحد. ليس الوطن هو النظام السياسي. فالوطن باق، والنظام السياسي متغير. الوطن هو الثابت، والنظام السياسي هو المتحول. الوطن هو اللغة فليست العروبة بأب أو أم إنما العروبة هي اللسان، في كل من تكلم العربية فهو عربي. «الوطن» هو التاريخ المشترك، والهـم المشترك، والوجدان المشترك. هو التعاطف الوجداني في المواقف الإنسانية المتشابهة خاصة مواقف القهر والتسلط والظلم والفقر والتهميش والإقصاء، و«كل بلاد العرب أوطاني».

وإذا كانت الظاهريات تبدأ بالإدراك الحسي كما فعل ميرلو بونتي في «ظاهريات الإدراك الحسي»<sup>(١)</sup>، قبل أن تتحول إلى سلوك في «بنية السلوك» فإن الوطن موضوع للمشاهدة والمعينة والإدراك الحسي المباشر. هو الرؤية للطبيعة، للأهـار والوديان، للجبال والسهول، للبحار والشواطئ، للساحل والصحراء، لخضرة الزرع وصفرة الرمال، لزرقة السماء وسماـر الجبال لصفرة الشرق واحمرار الغروب<sup>(٢)</sup> يدرك بالبصر، نهر مصر وصحراؤها، جبل لبنان وشاطئه. ويسمع بالأذن في تغريد البـابل، وصياح الديكة، وحفيف أوراق الشجر، وزعيق الناس، وأنين المظلوم وتأوهات المرضى، وضجيج العربات، وضوضاء المدن، وهتافات القديسين والأولياء، وصلوات المؤمنين، وترانيم الكهنة، وسماع الصوفية. يُعرف بالشم كما شم يعقوب ربح يوسف وكما يشم المواطن روائح الفل والياسمين والورد وعطورها. ويدرك بالذوق في شرب النعناع

(1) M. Merleau Ponty, Phénoménologie de la Perception PNF, Paris, 1960.

- Structure du Comportment, NRF, Paris, 1945.

(2) انظر دراستنا: «الأخضر والأصفر في القرآن الكريم»، هموم الفكر والوطن، ح١، التراث والعصر والحدثة، دار قباء، القاهرة ١٩٩٨، ص ٨٧-٦٨.

والقرفة والجوزيل وفي طعوم الملوخية والبصارة والفول والفلافل. وهو أيضا موضوع اللمس، حرير الشام، وجسد المرأة إلى آخر ما تغنى به الشعراء والزاجلون «أصله ما عداش على مصر». الوطن في القلب، في ذكريات الطفولة والبكاء على الإطلال وفي السيرة الذاتية.

وطنى وإن شغلت بالخلد عنه .: نازعتنى في الخلد نفسى

الوطن هو العالم المحيط، بشر وحجر. هو المجال الموضوعى للذات وميدان حركتها. الوطن هو الجسم الكبير الذى يتحرك فيه الجسم الصغير. هو العالم الأكبر الذى يغوص فيه العالم الأصغر بتعبير إخوان الصفا<sup>(١)</sup>. الوطن هو المياه التى تعيش فيها الأسماك. وصيد الأوطان مثل صيد الأسماك إخراجها من محيطها. ومياه بلا أسماك لا تطعم. وأسماك بلا مياه لا تعيش.

## ٢- التأصيل التاريخى

وهو موضوع قديم وشائع فى كل الحضارات، وليس وليد اللحظة الراهنة فى الوجدان العربى المعاصر وأزمته الاجتماعية والسياسية والثقافية. ظهر فى الشرق القديم، فى الصين فى علاقة المواطن بالدولة، وفى الهند فى علاقة الهنذى بالطائفة أو التراتبية الدينية، وفى فارس فى دواوين الدولة، وفى حضارات ما بين النهرين فى ارتباطه بالأرض والفلاحة، وفى مصر القديمة فى علاقته بالكاهن وفرعون<sup>(٢)</sup>. كما ظهر عند اليونان فى علاقة الفرد بالمدينة فى الدولة - المدينة، أثينا وأسبرطة أو علاقته فيما بعد بمجموع الإمبراطورية اليونانية أو الرومانية<sup>(٣)</sup>. ثم جاءت المسيحية وربطت المواطن بالإيمان وبالولاء الروحى. ولما تأسست فى كنيسة أصبح المؤمن عضوا فيها. ولما تعددت الكنائس

(١) رسائل إخوان الصفا، دار صادر، بيروت ١٩٥٧، ٥٠، الرسالة (١٢) فى قول الحكماء إن الإنسان فى عالم صغير، ص ٤٥٦-٤٢٩.

(٢) التراتبية الدينية Cast-System.

(٣) الدولة المدينة City-State.

تعددت الولاءات الكنيسية، شرقى غربى، كاثوليكي أورثوذكسى، بروتستانتى. ولكل كنيسة فروعها. ولما صاحب الإقطاع الكنيسة ارتبط الفرد بالإقطاعية وبالسيد. ولما ظهر النظام الملكى مصاحبا للإقطاع أصبح الفرد من الرعية.

وفى الحضارة الإسلامية تحول الولاء «الجاهلى» للقبيلة إلى ولاء أرحب وأوسع للعروبة والإسلام فى مواجهة الفرس والروم، كأقوام ونظم سياسية «استعمارية»، كسروية ورومانية. وانتسب المسلم إلى مصر من مجموع الأمصار أو ولاية من مجموع الولايات أو إلى أسرة أو دولة، الأموية والعباسية، الفاطمية والطولونية والإخشيدية والساسانية والصفوية والعثمانية... الخ. وكلها فى دولة أو نظام الخلافة المركزية فى دمشق أو بغداد أو القاهرة أو استانبول.

وأُسست الخلافة النظام «المللى» الذى يقوم على الهوية الدينية فى تعددية مذهبية وخصوصيات ثقافية ولغوية فى إطار الخلافة. ثم تحولت هذه الملل مثل الأرمن والعرب «شعوب البلقان» إلى حركات وطنية استقلالية ضد الأتراك. ثم وقعت الدول الوطنية الحديثة تحت الاستعمار الغربى الذى كان طامعا فى وراثة تركة الرجل المريض. ثم نشأت حركات استقلال وطنية ثانية ضد الاستعمار. ونشأت الدول الوطنية الحديثة<sup>(١)</sup>. «الوطن والمواطنة». مفهومان حديثان مرتبطان بالعبور الحديثة فى الغرب بعد ثورته ضد الكنيسة والإقطاع والملكية، وكل الدعوات الأهمية الدينية والاقتصادية والسياسية.

اندلعت الثورات السياسية ضد الملكيات مثل ثورة كرومويل فى انجلترا فى القرن السابع عشر. ثم اندلعت الثورة الفرنسية فى القرن الثامن عشر. وقدمت مفهوم المواطن مع مفهوم الإنسان، وكما تجلى فى «الإعلام العالمى لحقوق الإنسان والمواطن». وتؤكد المفهوم من جديد عندما انهارت الإمبراطوريات الروسية والنمساوية والفرنسية وغيرها فى القرن التاسع عشر لصالح القومية التى على أساسها قامت الدول القومية فى فرنسا وألمانيا وإيطاليا وأسبانيا وباقى دول أوروبا الغربية خاصة. وقامت ليس فقط

(١) الدولة الوطنية الحديثة New Nations-State.

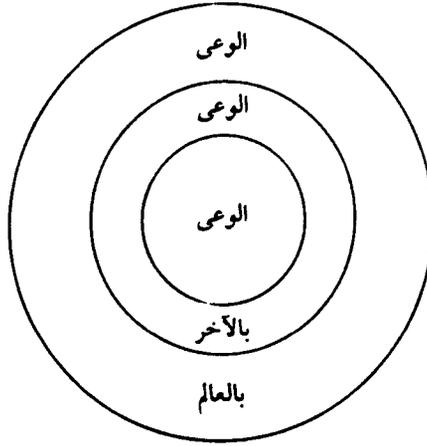
على مكونات جغرافية وتاريخية وثقافية ولغوية بل أيضًا على مكونات عرقية عنصرية. وظهرت أدبيات الشخصيات القومية لتحدد خصائص الشعوب، أمزجتها وعقلياتها وصفاتها الثابتة، في مقابل الشعوب اللاأوروبية وعقليتها «البدائية» وفكرها «البرى». واستمرت هذه النزعات حتى النصف الأول من القرن العشرين في النازية والفاشية والصهيونية. ثم قامت العولمة في النصف الثاني منه بعد انهيار الاتحاد السوفيتي والمنظومة الاشتراكية لتكوين عالم ذي قطب واحد بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية تتجاوز حدود الأوطان. وتستأنف عمل الشركات المتعددة الجنسيات. وتكون إمبراطورية اقتصادية جديدة مثل مجموعة الدول الثمانية الأكثر تصنيعًا. فالخلاف الآن ليس بين الشرق والغرب، فاليابان مصنعة قدر أمريكا بل بين الشمال والجنوب، بين التقدم والتأخر، بين الإنتاج والاستهلاك، بين الغنى والفقير... إلخ. تهدد العولمة بابتلاع الأوطان. وتتطلب تخلى الدولة عن سيادتها الوطنية لصالح قوانين السوق. أصبح العالم قرية واحدة بعد ثورة الاتصالات. وعادت روح الإمبراطوريات والأممية من جديد باسم العولمة وهي أحد أشكال هيمنة المركز على الأطراف ولامتصاص حركات التحرر الوطني ضد الاستعمار في الخمسينيات والستينيات.

والآن يعيش العرب أزمة طاحنة بحيث أصبح وجودهم كأمة وشعب ووطن مهددًا في التاريخ. فمنذ قيام الثورة الكمالية في ١٩٢٣، وانهيار الخلافة في ١٩٢٤، بدأت الدول الوطنية الحديثة بحدود مصطنعة من وضع الدول الاستعمارية الكبرى مثل انجلترا وفرنسا خاصة في مصر بعد ثورة ١٩١٩. ونشأت الدولة الليبرالية بدساتير حديثة مثل دستور ١٩٢٣، ومعاهدات مع القوى الاستعمارية مثل معاهدة ١٩٣٦ بين مصر وبريطانيا من أجل الاستقلال. ثم قامت الثورات العربية الحديثة في منتصف الخمسينيات لاستكمال حركة التحرر الوطني باتفاقية الجلاء في مصر عام ١٩٥٤، واستئناف النضال الوطني في الخمسينيات والستينيات، من المحيط إلى الخليج. فاستقلت دول المغرب العربي ليبيا وتونس، والجزائر، والمغرب ودول المشرق العربي سوريا، ولبنان، والعراق، والأردن، والكويت، والإمارات، واليمن. والدول العربية الأفريقية السودان والصومال. وجمعتها

القومية العربية بزعامة مصر. وقامت أول تجربة حدودية قومية في تاريخ العرب الحديث بين مصر وسوريا، تجربة الجمهورية العربية المتحدة ١٩٥٨-١٩٦١. ثم انهار الحلم القومي بعد هزيمة يونيو - حزيران عام ١٩٦٧. واستمر الانهيار بعد العدوان العراقي على إيران في ١٩٨٠، وظهور التناقض بين القومية العربية والثورة الإسلامية في حرب الخليج الأولى، ثم العدوان العراقي على الكويت عام ١٩٩٠، وظهور التناقض بين القومية والقطرية، بين العروبة والأوطان بعد حرب الخليج الثانية. ووقعت الحرب بين ليبيا وتشاد، وتناقضا بين القومية العربية، والزنجية الأفريقية، بين الساحل والصحراء. واستمر الانهيار العربي بعد حصار العراق على مدى أكثر من عشر سنوات ثم العدوان الأمريكي عليه عام ٢٠٠٣، واحتلاله كلية بمشاركة دول عربية وبمباركة أخرى. ومازال الانهيار مستمرا بعد التدخل الأثيوبي في الصومال، وهي عضو بالجامعة العربية مثل العراق، والعدوان الأمريكي عليه جوا وبراً بدعوى مطاردة الإرهاب الممثل في تنظيم القاعدة. واندلعت الانتفاضات في فلسطين الأولى والثانية. وترك العرب شعب فلسطين وحيداً وسط ذبح مقاتليه وقتل أطفاله ونسائه وشيوخه وتدمير منازلهم وتجريف أرضه وإقامة الجدار العازل وسط مائتي وخمسين مليون عربي. ثم برزت القطرية «مصر أولاً»، «الأردن أولاً»، «الكويت أولاً». تجدها في الغطاء الأمريكي وفي القواعد الأمريكية وفي الصلح مع إسرائيل والاعتراف بها وعودة المنطقة العربية كلها إلى عصر الأحلاف ومناطق النفوذ. واندلعت الصراعات والحروب الحدودية بين الأقطار، بين المغرب والجزائر، بين مصر والسودان، بين اليمن والسعودية، بين الإمارات وعمان، بين الكويت والعراق، بين قطر والبحرين، بين سوريا ولبنان، لتتآكل الأوطان من الخارج. ووقعت الحروب الأهلية داخل الأوطان في الجزائر ولبنان والسودان والصومال والمغرب، لتفتت الأوطان من الداخل. والآن الأوطان كلها مهددة بالتجزئة والتفتت العرقي والطائفي والمذهبي وتحويل المنطقة كلها إلى دويلات شيعية وسنية وكردية وتركمانية وعربية وبربرية وزنجية وإسلامية وقبطية حتى تصبح إسرائيل أكبر دولة عرقية طائفية في المنطقة، تأخذ شرعية جديدة من طبيعة الجغرافيا السياسية وليس من الأساطير الأولى المكونة لدولة اليهود أيام هرتزل، أساطير المعاد وشعب الله المختار.

### ٣- الوعي الذاتي

ويتخلق الإحساس بالوطن والمواطنة في تجليات الوعي من الوعي الذاتي إلى الوعي بالآخر إلى الوعي بالعالم. وهي الدوائر الثلاث في التكوين الظاهرياتي: الوعي، والوعي بالآخر، والوعي بالعالم. من علم النفس إلى علم الاجتماع إلى الفلسفة أو الميتافيزيقا في ثلاث دوائر متداخلة مشتركة في المركز.



الوعي الذاتي هو أول تجربة وجودية تثبت الذات. وأول حقيقة بديهية يبدأ منها نسق العلم. وهو في نفس الوقت وعى بالموضوع. فالذات ليست فارغة بل ذات وموضوع في نفس الوقت. كل شعور هو شعور بشيء. وهناك إحالة متبادلة بين الذات والموضوع في وحدة واحدة من الذات إلى الموضوع، ومن الموضوع إلى الذات.

وهو وعى بالزمان والعصر والتاريخ. الزمان نسيج الذات ومادته الأولى. والعصر هو الزمان الآني الذي تعيشه الذات. والتاريخ هو تراكم الخبرات في الذات عبر العصور، وتحول الآن إلى ذاكرة. الذات وعى داخلي بالزمان في أبعاده الثلاثة، الماضي والحاضر والمستقبل، الماضي باستدعاء الذكريات، والحاضر في التوتر، والمستقبل في الاستباق<sup>(١)</sup>.

(١) استدعاء الذكريات Retention. التوتر Tention. الاستباق Protention.

والوعى بالعصر هو أيضا وعى بالمكان والموقع والإقليم والعالم. لذلك ربط الفلاسفة دائما بين الزمان والمكان مثل أرسطو وكانط حتى ولو فرق آخرون بينهما مثل برجسون حرصا على الزمان دون رده إلى عدد الحركة منذ أرسطو حتى اينشتين.

الوعى الذاتى يتجاوز «الكوجيتو الديكارتى»: أنا أفكر إذن فأنا موجود. فهو وعى خارج الزمان والمكان، هوية صورية فارغة، إنسان طائر بتعبير ابن سينا. ويتجاوز أيضا الثورة الكوبرنيقية عند كانط التى تعطى الأولوية للذات على الموضوع، الذات ثابتة والموضوع يدور حولها فى تصور رياضى فلكى فارغ خارج الزمان والمكان، وإن كان الموضوع هو العالم كله.

الوعى الذاتى ليس هو حالة «النيرفانا» الهندية، الوعى الذاتى الخالص، الفارغ، السلبي للخلاص من شرور العالم بل هو الوعى الذاتى الذى يتضمن بداخله الوعى بالعالم. هو الذى وصفه فشته فى «نظرية العلم»، وهيجل فى «ظاهريات الروح» الذى يبدأ من «هنا» و«الآن». وهو قانون الهوية الذى تكون فيه الذات مساوية لنفسها قبل أن تكون مختلفة عن غيرها. هى الهوية التى يجعلها الإنسان فى بطاقته الشخصية ولا يجوز انتزاعها منه. وهى هوية الوطن<sup>(١)</sup>. ويخاطر الوعى بالذات بتغييب الوعى أو الوعى المغترب أو اغتراب الوعى، والتحول من الوعى بالذات إلى الوعى بالآخر. ويسبق الوعى بالآخر الوعى بالذات، ويصبح الوعى بالذات تاليا للوعى بالآخر ومعتمدا عليه. فالآخر هو الذى يعطى الذات وجودها، ويمجد لها موقفها، ويعين لها اتجاهها. من عرف نفسه فقد عرفه به أو من عرف نفسه فقد وجد العالم.

وقد يغترب الوعى بالذات فى الوعى بالله، هو الاغتراب الدينى، وإطلاق صفات الذات خارج الوعى الذاتى إلى مشجب خارجى تعلق عليه الذات صفاتها. وبدلا من أن تحققها كنظم مثالية للعالم تناجيتها وتتعبدها وتؤلفها. فالله تأليه<sup>(٢)</sup>. وقد تغترب الذات

(١) وهى الهوية التى عبر عنها محمود درويش فى رومانسيته الشهيرة «سجل، أنا عربى».

(٢) انظر دراستنا: «الاغتراب الدينى عند فيورباخ»، دراسات فلسفية، الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٨٢، ص ٤٤٥-٤٠٠.

في الجاه والسلطان، في القوة والسلطة مؤهلة ذاتها. تخرج قوتها الذاتية من الداخل إلى الخارج، من النفس إلى الجيش، ومن الروح إلى الشرطة، ومن الضمير إلى أجهزة الأمن. وهو الاغتراب السياسي. وقد تغرب الذات في المال والثروة، في الرزق والكسب بلا حدود. تتحول الثروة إلى غاية في حد ذاتها والاكتناز، وليس وسيلة للأعمار والتنمية وتوزيعها على الآخرين. وهو الاغتراب الاقتصادي. وقد تغرب الذات في ملذات الحياة والاستهلاك بلا حدود. فتعيش على مستوى الأشياء والإشباع والحياة العضوية. وهو الاغتراب المادي. وقد تغرب الذات في المصلحة الشخصية وإيثارها على مصالح الآخرين. وتتحول إلى أنانية دون غيرية. وهو الاغتراب الأخلاقي.

وقد يتحول الاغتراب إلى وهم عن طريق الإلهام باستعمال المخدرات وتغيب الوعي إراديا، هروبا من الوعي بالعالم وهو إيهايم الوعي. وهو ما يفعله الإعلام المزيف لتعبير الحقائق حتى يصبح الوعي فارغًا بلا مضمون وإيهايمه بوضع آخر لا وجود له. وهو تزيف الوعي. وهو ما يفعله النظام الشمولي عندما يعطى الأولوية للنظام على الفرد وللكتبان على ذرات الرمال، وهو ما دفع كيركجارد إلى الثورة على هيجل، وهو قهر الوعي. وهو ما يفعله التقليد وما تقوم به الأيديولوجيا في «لا تفكر نحن نفكر لك». كما تفعله الفرقة الناجية والأحادية الفكرية وهو إقصاء الوعي. وهو ما تفعله التبعية السياسية وهو ذوبان ما يظن أنه ضعيف في الآخر الأقوى في سياسة الأحلاف ومناطق النفوذ والقواعد العسكرية داخل الأوطان.

وقد يقترب الوعي الذاتي بتثيئه في المادة كما وصف ماركس الشاب وضع العامل في المجتمع الرأسمالي، وعلاقة العمل بالإنتاج، وكما وصف الوجوديون علاقة الذات بالعالم وضياعه فيه، وعلاقتها بالموضوع وابتلاعها فيه. هو الاغتراب في الحياة الآلية الحديثة وتحويل الفرد «المتفرد»، «الوحيد»، «الأوحد» بتعبير شترنر إلى رقم متكرر في الرقم القومي أو في السجل المدني أو المعاشات أو التأمينات أو في أرقام الجلوس في الامتحانات أو في السجون والمعتقلات، فالسجين له رقم وليس له اسم. والزنازة لها رقم وليست العالم المحيط. وهو الذي يبيح تعدد الزوجات ﴿مَتْنٌ وَتِلْكَ وَرَبِّعَ﴾ النساء: ٣].

وهو ما يسجله موظف التعداد السكاني وما يحصل عليه عالم الإحصاء في الدراسات الميدانية ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [النحل: ١٨]. فالإحصاء بطبيعته ناقص مهما كانت العينة ممثلة ﴿أَخَصَّنُهُ اللَّهُ وَسُوَّهُ﴾ [المجادلة: ٦]. تعرف الأم أولادها فردا فردا دون جمعهم في عدد كلي شامل.

يقرب الوعي الذاتي إلى أعلى في الدين أو إلى أسفل في العالم أو إلى الداخل في التصوف والمخدرات. ولا يتخرج إلى الآخر في المجتمع أو إلى العالم الفسيح، ميدان الفعل.

#### ٤- الوعي بالآخر

والآخر بُعد من أبعاد الذات. وأول تخرج لها بعد تأسيسها. يسبق الوعي بالعالم. فالآخر أقرب إلى الذات من العالم، والعالم أبعد عنها بالرغم من أنها وجود في العالم بتعبير هيدجر. الإحساس بالمصري سابق على الإحساس بمصر، والشعور باللبناني سابق على الشعور بلبنان. ومن ثم الوطن هم القوم والأحباب والأصدقاء والرفاق والأهل والأقارب والجمع والجيرة والشلة والدفعة. وهو ما سماه ابن خلدون «العصبية». ومن هنا أتى حزن الفراق، وألم الوحدة، وعذاب المهجر، ونعيم الوصال. ومن هنا أيضا أتى غدر الأصدقاء، وخيانة الأحباب، وغدر الأجابة، وانقلاب الشلة والرفاق.

وفي الوعي بالآخر يتأسس حب الجار، وصلابة الجماعة للتضامن الاجتماعي، والصيام إحساسا بجوع الفقراء، والزكاة تدويرا لرأس المال، والحج تضامنا عاما في الأمة. وفيه يتأسس الزواج لتكوين الأسرة ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١]. لم يعيش آدم بمفرده بل خلقت له حواء. والنساء شقائق الرجال. والرهينة ليست من الإسلام. وقد يصل حد التضامن خارج الأسرة والمجتمع إلى الإنسانية بأسرها كما هو الحال في الأمية الاشتراكية أو التماسك الاجتماعي إلى حد العنصرية كما هو الحال في الصهيونية. وفي حال العدوان تنتفض الجماعة لردعه باسم الجهاد أو المقاومة. فالأنا تضع نفسها حين

تقاوم كما هو الحال في «نظرية العلم» عند فشته<sup>(١)</sup>. ليس الآخرون هم الجحيم بتعبير سارتر بل النعيم. وليست العلاقة بين الأنا والآخر هي علاقة أنانية بالضرورة بل غيرية. وليست علاقة كراهية ونفور بل تعاون وتضامن. وليست علاقة اقضاء متبادل بمنطق «إما... أو» بل علاقة حوار وتفاهم مشترك بمنطق «نعم... ولكن». ومن هنا نشأت ضرورة الحوار الوطني، والحوار بين الأديان، والحوار بين الثقافات. وعلى أساسها قامت منظمات التعاون الدولي، وجمعيات الهلال الأحمر والدفاع عن حقوق الإنسان، ومنظمة العفو الدولي.

والمخاطر على الوعي بالآخر هي الأنانية والفردية أو الانعزالية والانكماش على الذات. الأنانية ابتلاع الآخر في الذات. والانعزالية هروب الذات من شبك الآخر. الخطورة في عادات الثأر والقتل والعدوان والحرب عندما تتضخم الأنا على حساب الآخر لدرجة عدم الاعتراف به ثم التخلص منه. الخطورة أن يتحول الآخر إلى جماعة المصلحة ورجال الأعمال والطبقة الاجتماعية، وأن يتحول الآخر كبعد للذات إلى آخر منفصل عن الذات، له مصالحه الخاصة. وفي ذلك موته ونهايته كانفصال الجذوع عن البذور، والفروع عن الجذوع، والأوراق عن الفروع.

ويأتى الخطر على الوعي بالآخر من انخراط الآخر في طائفة أو مذهب أو أيديولوجية أو عرق أو جنس أو لون بشرة. وبالتالي تسقط عنه صبغة الآخر المساوي للأنا لصالح آخر منغلق على نفسه لا يرى نفسه بعدا للأنا أى لآخر آخر. كما قد يأتى الخطر من عمق الانتماء إلى الرهط والقبيلة والعشيرة والعائلة كأساس عضوى لعلاقة الوعي بالذات بالوعي بالآخر، الآخر بلحمه وعظمه وليس الآخر من حيث هو آخر. وهو نفس العيب في القومية السوفيتية. وقد يجب الولاء للإقليم الولاء للآخر غير الأقليمي كما هو الحال في التكتل المهني والسكنى للصعايدة والبحاروة، للنوبيين والسودانيين، للبدو وللحضر. وقد يكون التكتل طبقيا في أحياء الفقراء وأحياء الأغنياء، بين عشش الترجمان

(١) انظر كتابنا «فشته فيلسوف المقاومة»، مركز الكتاب للنشر، القاهرة ٢٠٠٣، الباب الثاني: نظرية العلم، الفصل الثاني: البنية والتطور ٣- مبادئ نظرية العلم، ص ١٨٠-١٨٧.

والأباجية وبولاق الدكرور ومدينة العمال وإمبابة من ناحية، والزمالك وجاردن سیتی والمهندسين ومصر الجديدة ومدينة نصر والمدن الجديدة المغلقة من ناحية أخرى.

وتتجسد علاقة الأنا بالآخر في النظام السياسي. والمواطنة سابقة عليه. فالديمقراطية ليست شرطاً للمواطنة. بل هي تعبير عنها. وقد يبدأ حاكم لا ديمقراطي خطابه السياسي بنداء «أيها الأخوة المواطنين»، وقد يقوم نظام ديمقراطي على تمييز عنصرى بين أبيض وأسود وأسمر، كما هو الحال في الولايات المتحدة بين الأمريكيين من أصل أوروبى أو أفريقى أو أسبانى. بل إن نموذج توزيع المناصب العليا في الدولة بين رئاسة الدولة ورئاسة الوزارة ورئاسة البرلمان على الطوائف المختلفة، الموارنة والسنة والشيعية، تكريس للطائفية ونفى للمواطنة وحق الشعب في اختيار الأفضل بين مرشحين متساويين بصرف النظر عن طائفته ومذهبه وعرقه حتى لا ينشأ تعارض بين الولاء للعقيدة والطائفة والمذهب من ناحية والولاء للوطن والمصالح الوطنية ومجموع الشعب من ناحية أخرى. ولا يوجد ما يسمى بما يتجاوز الأوطان إلا عبر التعاون الإقليمي مع دول الجوار قبل التعاون الدولي على مستوى العالم.

المواطنة أساس الدولة وقبلها في التشكل الاجتماعي. المواطنة وجود، والدولة شكل من أشكال الرابطة الاجتماعية مثل القبيلة والعشيرة والطائفة. ولا تعدد المواطنة في أشكال اجتماعية. فالمواطنة تجمع ولا تفرق. توحد ولا تعدد. تعدد المواطنة في أنواع العمل الاجتماعي، الدفاع في الجيش والإنتاج الزراعى والصناعى لدى الفلاحين والعمال، والإبداع الثقافى لدى المثقفين والفنانين الوطنيين<sup>(١)</sup>.

## ٥- الوعى بالعالم

الوعى بالعالم هو البعد الثالث للمواطنة بعد الوعى بالذات والوعى بالآخر. والوعى بالعالم هو الوعى بالمكان بعد وضعه بين قوسين. هو الوعى بالموقع والموقف

(١) ما يتجاوز الأوطان. Transnational.

والالتزام، بالموضع والإقليم والنظام العالمى، بمصر أو لبنان والوطن العربى والعالم الإسلامى، بالشرق والغرب، بالشمال والجنوب، بالمركز والأطراف.

يبدأ الوعى بالعالم بالوعى بالوطن، تجمع بشرى فى الزمان والمكان وشعور الفرد أمامه بالانتماء والولاء. هو الموقع فى الوجدان، «مصر التى فى خاطرى وفى فمى»، وليس فقط مصر الجغرافيا أو التاريخ أو الاجتماع أو الاقتصاد أو السياسة أو الحضارة. وهى التى يشدى بها فى الأغانى الشعبية «يا حبيبى يا مصر» أو «بحبك يا لبنان يا وطنى». الوعى بالذات يحيل إلى الوعى بالعالم، والوعى بالآخر هو جزء من الوعى بالعالم ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات: ٢٠-٢١]، ﴿سَأْتِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمُ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]. وكما يحيل الوعى بالذات إلى الوعى بالعالم، يحيل الوعى بالعالم إلى الوعى بالذات. الوعى بالذات هى النفس. والوعى بالعالم هو الأفق. فالعالم أفق للنفس.

والحنين إلى الأوطان جزء من أدبيات العرب. فقد كتب أبو حيان التوحيدي رسالة فى «الحنين إلى الأوطان». وقد ذرف الرسول الدمع وهو يغادر مكة ليلة الهجرة معلنا أنها أحب الأماكن إلى قلبه لولا ظلم أهلها وخروجه مضطرا منها. ثم عاد إليها بعد الفتح. ولا هجرة بعد الفتح. فى الوطن تهيج الذكريات. ويحمله المهاجر فى قلبه حتى بعد الهجرة. وكانت أمنية الوطنى الفيتنامى قبل أن يطلق الأمريكى الرصاصة على رأسه أن يرى وطنه. وقد عظمت الفلسفات الرومانسية العودة إلى الأرحام، والولاء للأوطان كما فعل هيجل وشلنج. وتغنت كل فلسفات الواقع أيضا بالأوطان والشعوب. وعبر الفنانون عن حب الأوطان فى الأناشيد والأغانى والقصائد السيمفونية واللوح والفنون التشكيلية كما هو الحال فى نشيد «بلادى بلادى» ونشيد «المارسيليز»، وقوس النصر، وتمثال الحرية مكان سجن الباستيل، وتمثال نهضة مصر لمختار. كما عبرت فلسفات وحدة الوجود عند الصوفية عن هذا الوعى بالعالم. فالله ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الصافات: ٥]، ﴿وَهُوَ الَّذِى فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤]. وقد يواجه الوعى بالعالم عدة مخاطر منها الانعزال عنه والانسلاخ منه كما تدعو لذلك الطرق

الصوفية. فالعالم هو الدنيا ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى: ١٧]. وما أكثر التراث الصوفي القديم في سبب الدنيا وبيان مثالبها ومخاطرها على استقلال الوعي. الإنسان في الدنيا مجرد عابر سبيل على راحلة. تتوقف حياته بتوقفها مع أن هناك دعوات أخرى في القرآن الكريم للعمل في الدنيا وإعمارها ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكَ فِيهَا﴾ [هود: ٦١]. ومنها الخطر المقابل وهو الانغماس فيها وتبخر الوعي بالذات في الوعي بالعالم لدرجة الضياع والتهيه فيه. وهو ما صوره محمد إقبال في شعره.

أرى الكافر حيرانا .: له الأفاق تيه  
وأرى المؤمن كونا .: تاهت الأفاق فيه

ومنها مخاطر تلوث البيئة ليس فقط من نفايات المصانع كما هو الحال في الدول المتقدمة بل أيضا من روث البهائم، والبصق في الطرقات، وإلقاء القاذورات في الأماكن العامة. فالعالم سلب، تلقى عليه الزوائد. مع أن العالم أرض للسعى والكفاح. خلقت ذلولا ليمشى الإنسان في مناكبها. وهنا أيضا تأتي خطورة ترك الأوطان، والمهجرة خارج البلاد، ضيق في الداخل ورحابة في الخارج على الرغم مما ذاع من ارتباط المصرى بأرضه، والفلاح بزرقه، والفرد بعشيرته، والابن بأمه وأبيه وإخوته. هى لقمة العيش التى دفعت إلى الوقوف طوابير طويلة أمام السفارات للحصول على تأشيرة الهجرة للانضمام إلى ملايين المهاجرين في الخارج. منهم من هاجر، ومنهم من ينتظر، بحثا عن عقد عمل أو بطاقة خضراء أو جواز سفر مزدوج.

وفي نفس الوقت يأتى الخطر المعاكس من الاستيطان واستبدال الشعوب، طرد شعب من أرضه خارج وطنه فيحمله معه في الأدب والفن. ووضع شعب آخر محله في غير وطنه يحمل معه فكر الأوطان التى هاجر منها، روسيا أو بولندا أو أمريكا أو أوربا أو الحبشة. فلا الذى طرد من وطنه وسلبت منه أرضه سعيدا في المنفى، ولا الذى حل معه من وطن آخر سعيدا في «العاليا» في أرض المعاد. الوطن هو الذاكرة. والذاكرة هى الوطن. لذلك جاءت عقوبة التغريب للمحصن، إبعاده عن الوطن الذى عاش فيه، ومن الحبيبة التى عشقها ليشعر بالأم الفراق، وهنا أيضا تبدو حدود الأيديولوجيات

العابرة للقارات خارج الأوطان كالشركات المتعددة الجنسيات التي لم تعد عليها شعار «صنع في مصر» أو «صنع في الصين» أو «صنع في إسرائيل».

## ٦- الحوار الوطني

إذا كانت الأزمة العربية الراهنة يمثل هذه السهولة، أن يكون لها حل كمفتاح سحري مثل «الإسلام هو الحل»، «العلمانية هي الحل»، «العلم هو الحل»، «أمريكا هي الحل»، «إسرائيل هي الحل» تكون «المواطنة هي الحل»، طالما في الأصل كان الوطن<sup>(١)</sup>. الإسلام والناصرية والقومية والليبرالية والماركسية مداخل أيديولوجية للوطن. والوطن لا مدخل له إلا الوطنية والمواطنة. ويتم ذلك عن طريق تكوين جبهة وطنية أو ائتلاف وطني أو وفاق وطني أو إجماع وطني على الحد الأدنى من برنامج للعمل الوطني دفاعاً عن استقلال الوطن، وحرية مواطنيه، ووحدة شعبه، والمساواة بين أفراده، والعدالة بين طبقاته، وتنمية موارده، والدفاع عن هويته، وتجنيد شعبه. الثقافة الوطنية هو القاسم المشترك بين جميع المواطنين في مجتمع تتعدد فيه الأديان والمذاهب والطوائف والأيدولوجيات السياسية. تعددية سياسية. على مستوى النظر ووحداًنية عملية على مستوى العمل دون استبعاد فريق أو إقصاء طائفة أو تهميش مذهب. لا توجد فرقة واحدة ناجية وباقي الفرق هالكة. الأولى في الجنة والثانية في النار. لا تكفير ولا تحوين. الحوار الوطني هو الكفيل بتقريب وجهات النظر بين الفرق. كلها شرعية. ولا يوجد حظر على إحداها دون الأخرى. الإله الواحد تتعدد صفاته. ويعطى كل دين الأولوية لصفة على باقي الصفات مثل القوة في اليهودية، والمحبة في المسيحية، والعدل في الإسلام.

قد تختلف لغة الحوار من فريق إلى فريق في حين أن المعنى واحد، فحقوق الإنسان عند العلماني هي مقاصد الشريعة عند الإسلامي: الحياة والعقل والقيمة والعرض أو

(١) أنور عبد الملك: الوطنية هي الحل، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة ٢٠٠٦.

الكرامة والثروة أو المال العام. والأيدولوجيا هي الدين. والعمل في الأوقات والإنجاز هي الشعائر. وقد تختلف مستويات التحليل. الإنسانى عند العلمانى والإلهى عند السلفى، المصلحى فى مقابل الشرعى، النصى فى مقابل الواقعى. وقد تختلف الوظائف والصيغ، فالمستقبل عند العلمانى هو الآخرة عند السلفى. والتاريخ عند الأول هو قصص الأنبياء عند الثانى. وقد تختلف أدوات التحليل وطرق البرهان، الاستقراء والإحصاء والانتقال من الجزء إلى الكل عند العلمانى، والاستنباط والنص والانتقال من الكل إلى الجزء عند السلفى. الهدف واحد وهو تحقيق المصالح العامة. والوسيلة واحدة وهى الحصول على السلطة. والسلطة الفعلية ليست فى القصر بل فى العقل. ليست فى الجيش والشرطة وأجهزة الأمن بل فى الثقافة والرؤية والمنظور. ويرجع الخلاف إلى مصالح شخصية أو طبقية أو اختيارات أيديولوجية أو صراع على السلطة.

إنقاذ الوطن وتأكيد المواطنة يتم عن طريق هدنة مؤقتة بين فرقاء الوطن من أجل نزع فتيل الصراع بين التيارين الفكرين الرئيسين فى الثقافة، السلفى والعلمانى، من أجل وجود الحوار بينهما بدلا من الاستقطاب الحالى الذى يوشك أن يؤدى إلى فرقة وطنية قد تصل بين الحين والآخر إلى حرب أهلية كما حدث فى الجزائر، تكلف الوطن أكثر من مائة ألف قتيل.

لقد استطاعت كل ثورة أن تعزز مفهوما تضع فيه المواطنين جميعا مثل مفهوم «المواطن» فى الثورة الفرنسية، و«الرفيق» فى الثورة الاشتراكية، و«الأخ» فى التيار الإسلامى عند الإخوان المسلمين. وكان عبد الناصر يصدر خطبه ببناء «أيها الإخوة المواطنين». ومع ذلك حتى الآن تتنازعنا مفاهيم متعددة مثل السيد والأستاذ والأفندى والشيخ والخواجة، والأخ، وصاحب السعادة، وصاحب السيادة، وصاحب الغبطة، وصاحب النياقة، وصاحب الجلالة. مازالت الثقافة العربية تبحث عن مفهوم واحد يجمعها. فهل مازال مفهوم الوطن والمواطنة بعيد المنال؟